مراحل السلوك الصوفي

من خلال الحكم العطائية

بسم الله

د. محمد صحري

الإهـــــداء :

إلـى شيخي ودليلي إلى الله القطب الرباني والفرد الصمداني

سيدي حمزة بن العباس بودشيش القادري

نفعنا الله ببركته آميـــن.

إن هذا الكتاب يستهدف إيقاظ الرغبة في الله الراقدة في أعماق القلوب، والتي لا ينفخ فيها الحياة إلا نداء صادق صادر عن شيخ عارف بالله دال عليه.

إن القلب عند سماعه لهذا النداء واستجابته له، يبدأ مسيرة تحريره من هيمنة النفس لتحقيق استقلاله.

إن الانسان باستجابته لكل مطالب نفسه (حلالها وحرامها) التي لا تنضبط إلا بضابط الهوى واللذة يتوهم أنه يحقق حريته ويكسر قيود سجنه، في حين أن ذلك لا يزيده إلا «ارتباطا» بالأشياء، وتبعية لها مما يزج بقلبه في مزيد من «الاعتقال».

إن الأشياء المادية لا تشكل في حد ذاتها خطرا على القلب، ولا تهدد توازنه إلا إذا ارتبط شعوريا بها في غياب أي جهد لتجريده من هذا التعلق.

إن تجرد القلب لا يتم إلا بنقل تعلقه بالأشياء وبالقيم المادية الى التعلق بقيمة أعلى، وهي «قيمة القيم» ألا وهي الله تعالى.

إن التعلق باعتباره استعدادا فطريا في الانسان، وقابلية غريزية فيه (إذ لابد أن يتعلق القلب بشيء ما) يتوافق وينسجم مع «الله» الذي يشكل الموضوع الأسمى للتعلق باعتباره أشرف ما يُتَعَلق به، بينما نجد هناك عدم توافق، بل وتنافر بين القلب كجارحة

باطنية و«مكان للتعلق» والسوى (ما سوى الله)، بين الغير والغيرية، أي بين القالب والمحتوى، والمضمون والإطار.

وعدم التوافق هذا نرصده على مستوى الشعور بالضنك الذي ينتابنا حتى بعد تحقيق كل الرغبات واستيفاء كل المطالب. بينما نجد أن التعلق بالله يخلف في القلب شعورا حقيقيا بالطمأنينة والسعادة. فالانسان لا يشعر بالسعادة الحقيقية إلا بتحرير قلبه من كل التعلقات بما سوى الله تعالى كيفما كانت الأشكال التي تتقمصها ، والصيغ التي تتلفع فيها (أشياء مادية، أفكار، ايدلوجيات...).

إن التعلق بالله خلافا للأطروحة المادية لا يستلب إرادة الانسان، ولا يقلص من إمكاناته، بل على العكس من ذلك يحرره من نفسه مصدر شقائه وأتعابه.

إن قطرة الماء التي نزج بها في البحر معتقدين أننا بذلك نسجنها فيه، ونقيد من حريتها تشعر بكل البحر يجري فيها... كذلك الخضوع لله خضوعا كليا، والاستسلام لمشيئته استسلاما لا منازعة فيه هو الذي يحرر القلب من خضوعه «لما سوى الله» الذي يعتبر مصدر شقائه وضنكه.

إن تحرير القلب لا يتم إلا بإعلان «حرب تحرير» حقيقية ضد النفس، والتي يمكن أن تأخذ مسارين:

- سلوك طريق طويلة مليئة بالعقبات، وهي طريق مجاهدة النفس بقطع تعلقاتها بما سوى الله واحدا تلو الآخر، وذلك برفض الاستجابة لمطالبها والخضوع لأوامرها.

وهذه الطريق طريق شاقة ومضنية ومكلفة لأنها تتطلب استثمار طاقات إنسانية هائلة. كما أنها لا تحرر القلب من كل تعلقاته، إذ تبقى هناك بعض التعلقات الدفينة والدقيقة ببعض القيم المعنوية والنورانية.

- الخضوع لشيخ عارف بالله دال عليه والذي بفضل الدعم الروحي الذي يقدمه للمريد السالك طريق الحق يتمكن هذا الاخير من قطع خيوط تعلقاته «بما سوى الله تعالى» في طبقاتها السطحية والعميقة، لأنه يعمل على إجتثاث العمود الذي تقوم عليه وهو النفس.

ففناء النفس يلغي على الفور كل تلك التعلقات، لأن هذه الاخيرة لا تجد مشجبا تستقر عليه (أي مشجب النفس). فضربة مقص العارف بالله توفر على المريد مجهود قرض حبال تعلقاته بأسنان إرادته الواحد تلو الآخر.

إن الأسلوب الثاني يعتبر فعالا وسريعا وحاسما. وتكمن صعوبته في أمرين:

- العثور على العارف بالله الواصل الموصل المأذون في تربية

قلوب المريدين، والذي ينعت ب«الكبريت الأحمر» لندرته.

- الاعتقاد في ولايته، وبالتالي في أستاذيته الروحية. ذلك أن هذا الاعتقاد هو الذي يشكل القناة التي من خلالها تتدفق الأنوار التي تعتبر «المضاد الحيوي» النوراني الذي يطهر القلب من أمراضه وتعلقاته بما سوى الله تعالى. وهذه الأنوار تسري من خلال ذكر الله تعالى الذي يصفه للمريد.

إن السير الى الله تعالى تحت إشراف الشيخ المربي هو سير داخل النفس الانسانية لطي مراحلها، واختراق مسافاتها المعنوية، والرجوع الى مصدرها الأصلي. وهو سير محفوف بالمخاطر بالنسبة لمن يغامر فيه بدون خريطة أو دليل. إذ أن خطر «الانزلاق الروحي» يتهدد السالك في كل لحظة، وعند كل منعرج ومعه اختلال توازنه النفسي والعقلي. ذلك أن الروح التي تدبر هيكله الترابي الجسدي وتحافظ على توازن قواه -في حالة غياب الشيخ المربي والدليل الى الله وغلبة أنوار الذكر عليها- تنصرف عن هذه المهمة لكي تستغرق في الأنوار الإلهية مما يؤدي الى اختلال توازن الجسم والعقل (حالة جذب).

إن المهمة الغيبية للشيخ المربي هي تكييف الأنوار مع «الطاقة الاستيعابية» الروحية للمريد مما يجعل هذا الأخير متوازنا عقليا واجتماعيا مع تحقيق سيره الروحي الى الله تعالى.

وقد أثبتت التجربة أن المريدين «المؤطرين» روحيا من شيخ عارف بالله دال عليه متوازنون نفسيا واجتماعيا بالرغم من أنهم يذكرون الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار.

إن هذا المؤلف المتواضع يرسم الخطوط العريضة لهذا السير الى الله تعالى الذي يسلكه قلب يريد أن يتحرر من قبضة النفس، أي قلب يسعى الى طهارته تحت إشراف شيخ عارف بالله دال عليه وذلك من خلال «حكم ابن عطاء الله السكندري» التي أصبحت بمثابة «علامات مرور» في طريق السير الى الله تعالى.

كان ابن عطاء الله تلميذ ووارث سر شيخه أبي العباس المرسي، الذي كان بدوره تلميذ ووارث سر شيخه أبي الحسن الشاذلي. وقد توفي رحمه الله في 709 هـ بالاسكندرية بمصر.

I - تحديد بعض المفاهيم:

قبل حديثنا عن مراحل السير الى الله تعالى من خلال الحكم العطائية يجدر بنا أولا تحديد مدلول بعض المفاهيم،والتي تعتبر مفاتيح ضرورية للفهم وهي:

التصوف والتجرد والقلب.

1- مفهوم التصوف:

إن التصوف هو مقام الاحسان من الاسلام كما جاء ذلك في الحديث المعروف بحديث جبريل،والذي نصه كالتالي:

عن عمر (رض) قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يامحمد! أخبرني عن الاسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الايمان. قال:

أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الاحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. ثم انطلق. فلبث مليا، ثم قال: ياعمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» (رواه مسلم).

فالتصوف هو الطابق الثالث في البناء الاسلامي، أي مستوى الاحسان حيث يصبح الايمان إيمانا شهوديا بعد أن كان إيمانا غيبيا اعتقاديا. فالغيب الذي نؤمن به على مستوى الايمان يصبح واقعا شهوديا نتراءاه (كأنك تراه) على مستوى الإحسان.

فإذا كان الاسلام هو مجموع الطوابق الثلاثة إلا أن طابقه الثالث (مستوى الاحسان) هو كماله من خلال تحقيق مستويي الاسلام والايمان تحقيقا يحول الظن الغائب الى يقين حاضر.

ومستوى الإحسان عاشه الصحابة رضوان الله عليهم في علاقتهم بالرسول عليه الصلاة والسلام. وانتقلت أسرار هذا المقام

إليهم روحيا من خلال رابط المحبة والتعلق بشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فكما أن أسرار مستوى الاسلام تنتقل بالتلقين والاستماع من فكر الى فكر، وأسرار مستوى الايمان تنتقل بالعمل والاتباع من سلوك الى سلوك، فأسرار مقام الاحسان تنتقل من قلب الى قلب بالمحبة والتعلق بشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وورثته من أمته.

وإن غياب ممارسة مستوى الإحسان في سلوك المسلمين (لغياب قناة التواصل لديهم التي هي المحبة)، باستثناء بعض الدوائر الضيقة، أدى الى تأسيس إسلام مبتور بدون روح.

وعندما حاول البعض ترميم الجزء المتداعي من البناء الاسلامي (طابق الاحسان) نعتوا بالمتصوفة، وتم تقييم سلوكهم انطلاقا من تصور قاصر **لإسلام بمستويين** فقط، حيث اعتبروا أن محاولة الصوفية بناء **الطابق المتداعي** هو إضافة الى الاسلام ماليس منه.

وإن الحقيقة الصوفية التي اكتشفها العارفون بالله ماهي إلا تفصيل لما أجمل في الشريعة.

وإن معارضة النص القرآني أو الحديثي بالحقيقة الصوفية يرجع الى معارضة الجزء (الحقيقة الصوفية) بكله (الشريعة). ذلك

أن علاقة الحقيقة الصوفية بالنص القرآني أو الحديثي هي علاقة تضمن واستغراق (الثاني للأول) لا علاقة تضاد وتنافر كما يحاول الايهام بذلك بعض ممن يوجد خارج التجربة الصوفية.

إن التعارض -إذا وجد- هو تعارض بين سوء تأويل النص القرآني أو الحديثي و/ أو النص الصوفي، أو بين سوء تأويل النص الصوفي (على فرض صحته) والنص القرآني أو الحديثي. هذا خصوصا إذا علمنا أن اللغة الصوفية هي لغة إشارية لا دلالية، أي أنها تشير الى الحقيقة عن بعد ولا تدل عليها. إذ الدلالة الحقيقية للنص الصوفي لا يمكن فهمها إلا بالمشاركة الوجدانية.

2- مفهوم القلب:

يتضح من خلال القرآن والحديث أن القلب جارحة باطنية خلق فيه الله تعالى استعدادا لمعرفته. وهذا الاستعداد إما أنه يستثمر وينمى، أو يوجه توجيها خاطئا نحو قيم بديلة عن الله كالمال والجاه والايديولوجيات السياسية إلخ...

وهذه البدائل كلها لا تطفئ عطش قلب الانسان لربه، بل تزيد من توتره الناتج عن عدم حصول الاشباع لديه.

وأصل هذا الاستعداد راجع الى كون الحق سبحانه وتعالى

«خلق آدم على صورته»(1). والصورة لها ميل غريزي وتلقائي الى الرجوع الى مصدرها، والاندماج فيه إذا أزيلت عنها الحواجز والحجب.

وإن القلب الذي هو محل هذا الاستعداد هو «الجهاز الروحي» الذي يجهله الكافر في نفسه، أو هو جهاز مشغل تشغيلا ناقصا لدى المؤمن الذي لم يتلق التربية الروحية»مما يستوجب ضرورة عرضه على أخصائي (وهو الشيخ العارف بالله) لإصلاح أعطابه»وجعله قادرا على التقاط الأنوار الإلهية المبثوثة في الوجود.

إن القلب الذي تناط به مسؤولية وعبء حمل الصورة الالهية (أي قابليته للاتصاف بالأوصاف الإلهية) ليكون محل نظر الحق من الوجود يتطلع بالضرورة الى الله تعالى إذا أزيحت من أمامه العوارض. فالملائكة سجدوا للصورة الإلهية المتجلية في شخص آدم الترابي، ولم يسجدوا لهيكله الطيني.

وعطل هذا الجهاز ناتج عن عدم تشغيله، وتشغيله يكون باشتغاله بالله. فيكون عطله إذن في غفلته عن الله.

والغفلة ناتجة عن تراكم سحب النفس في سماء القلب وتلبدها في فضائه مما يحجب شمس الحقيقة، والتي لا يتسلل منها إلا

شعاع ضعيف وباهت.

ويحدد ابن عطاء الله في حكمه طبيعة هذه السحب النفسية ومصدرها:

- «أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها. ولأن تصاحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصاحب عالما يرضى عن نفسه. فأي علم لعالم يرضى عن نفسه، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه».

- «تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال».

- «كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته، أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ولم يتطهر من جنابة غفلاته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟»

- «لا يخاف أن تلتبس الطريق عليك وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك».

- «ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت».

وسحب النفس تشف تدريجيا»فتكون ذات ظلمانية كثيفة على مستوى النفس الأمارة بالسوء، ثم ذات ظلمانية أقل كثافة على مستوى النفس اللوامة، ثم نورانية كثيفة على مستوى النفس الراضية، ثم نورانية شفافة على مستوى النفس المرضية.

وفي كل هذه الحالات تعتبر النفس في كل أطوارها المشجب التي تستقر عليه هذه السحب والتعلقات الكونية»والتي لا تنزاح كلية عن مرآة القلب إلا بزوال النفس زوالا شعوريا (حالة الفناء)» ثم زوال الشعور بهذا الفناء نفسه (فناء الفناء)»حيث لا تجد مكانا تستقر عليه. وبذلك يتم تحرير القلب «المعتقل» وراء قضبان النفس.

3- مفهوم التجرد:

بعد تشخيص المرض»يقترح بن عطاء الله العلاج والذي يكمن في تبديد وإجلاء السحب عن سماء القلب، ظلمانية كانت أم نورانية، كثيفة أم شفافة»أي في التجرد. يقول»بن عطاء الله في هذا الصدد:

- «فرغ قلبك من الأغيار يملؤه بالمعارف والأسرار، ولا تستبطئ منه النوال ولكن استبطئ من نفسك وجود الاقبال».

- «لا ترحل من كون الى كون فتكون كحمار الرحى يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان الى المكون.»

- « إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده. جعله لك عدوا ليحوشك به إليه، وحرك عليك النفس لتديم إقبالك عليه.»

- « إن أردت أن لا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم لك، إن رغبتك البدايات زهدتك النهايات. إن دعاك إليها ظاهر نهاك عنها باطن. إنما جعلها محلا للأغيار ومعدنا لوجود الأكدار تزهيدا لك فيها. علم أنك لا تقبل النصح المجرد فذوقك من ذواقها ما يسهل عليك وجود فراقها».

وتكاد حكم ابن عطاء الله كلها تتمحور حول مفهوم التجرد الذي يعتبر مفهوما مركزيا في حكمه.

ففي كل مرحلة من مراحل السير الى الله يتجرد القلب ويخلع عنه صفات معينة للدخول الى المرحلة التي تليها. فعملية التجرد عملية مستمرة لا تتوقف إلا بالفناء الكلي للنفس (تجرد باطني من الأشياء المادية، تجرد شعوري من الأعمال والطاعات، وتجرد من التجرد نفسه).

ويعبرابن عطاء الله عن ذلك قائلا:

- « ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة، الذي تطلبه أمامك. ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها: إنما نحن فتنة فلا تكفر».

لأنه:

- « ربما وقفت القلوب مع الأنوار كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار».

شعر : تحليقات حزينة لطائر شارد عن عشه

1- أنى لطير شارد عن عشه

تائه عن سربه

والسرب ضل الطريق لغابه

أن يجد الطريق لعشه

تلك مأساة إنسان شذ عن ربه

2- السرب لم يهتد لغابه

لأنه ضل الطريق لدربه

والدرب قد اختفى عن عينه

تلك مأساة إنسان تاه عن ربه

3- السرب ضل الطريق لدربه

كان الدرب هاهنا بقربه

كيف اختفى عن عينه؟

لم يختف الدرب عن عينه

فهو قريب قريب بحذوه

لكن النور اختفى من عينه

لذا لم يبصر الدرب بحذوه

فضل الطريق لغابه

ولم يجد الطير الطريق لعشه

تلك مأساة إنسان حاد عن ربه

4- وقف الطير بعيدا عن سربه

بحث في خريطة نفسه

وأصغى لدقات قلبه

سمعها تهتف قائلة له:

لما كنت فرخا عاريا من ريشه

ضمك العش لصدره

وحن عليك بعطفه

لما صرت طيرا نبت الريش بجنبه

نبت الغرور برأسه

طار بعيدا عن عشه

حسب النجاة في ريشه

فضل الطريق لعشه

ليعود الطير إلى عشه

لبس جناح الريح وطار به

ثم أغفى ونام بكفه

أسقطه الريح في عشه

وضمه العش لصدره

حن عليه بعطفه

فالعش ريش لمن تجرد عن ريشه

II - أطوار النفس أو السياق الباطني للحكم العطائية:

تعتبر درجات النفس السياق الباطني، والمناسبة الروحية، لإطار المرجعي للحكم العطائية. ويميز الصوفية في هذا الصدد ن خمسة أطوار للنفس بحسب درجة طهارتها: النفس الأمارة لسوء، النفس اللوامة، النفس المطمئنة، النفس الراضية، النفس رضية، النفس الكاملة.

والنفس عند الصوفية هي نتيجة اتصال الروح بالهيكل سدي الذي تتولى تدبيره.

1- النفس الأمارة بالسوء:

إن النفس الأمارة بالسوء هي النفس الفرويدية مستودع رغبات. والمبدأ الذي يتحكم في سلوكها هو «استقصاء اللذة حسية أو معنوية) بأدنى كلفة ممكنة». وكقوة مهيمنة فهي ستولي على القلب وتوجهه نحو الارتباط بقيم مادية أو سياسية ثقافية لإشباع رغبتها واستقصاء لذتها. ولا يمكن التخفيف من دة هذه النزعة إلا بالتربية الروحية التي تحول الرغبة في استقصاء

اللذة الحسية أو المعنوية الى «الحاجة الى التوازن».

إن النفس الأمارة بالسوء بحكم موقعها الهيمني، وفي غياب أي جهد لإضعاف نفوذها، تفرض على القلب رغباتها على مضض منه. كما أن الفكر يصبح خديمها والناطق باسمها حيث يقوم بتبرير اختياراتها تبريرا «عقلانيا»، وبذلك تصبح مفاهيم الفكر كـ«الموضوعية» و«العقلانية» مفاهيم فارغة لأنها تبرر اختيارات سابقة للنفس.

إلا أن النفس الأمارة،بالرغم من إشباع جميع رغباتها واستيفاء جميع مطالبها، تظل نهبا للشعور بالضنك الذي يخيم عليها بظله القاتم فاضحا بذلك عورات "الآلهة الجديدة" التي صاغتها النفس لنفسها.

وهذا الضنك الذي هو مثار جدل واسع في التحليل النفسي والسوسيولوجي يبقى بدون تفسير لدى الأفراد والجماعات التي تقتلها الغربة والشعور بالوحدة الوجودية في «أدغال» المدن العملاقة، والتي تعاني من عجز روحي مزمن.

إلا أن ما تجدر إليه الاشارة هنا هو أن النفس الأمارة بالسوء بإحلال حظوظها محل حقوق الربوبية التي هي نقيض هذه الحظوظ، تريد أن تنصب نفسها إله محررا من كل القيود بالرغم من الأصفاد الموضوعية التي تكبلها (الموت، العجز، الجهل...). فهي تريد أن

تستولي على أوصاف الربوبية(1) لإشباع رغبتها في استقصاء لذتها الحسية (المتعة) والمعنوية (القوة).

إلا أن خلاصها يكمن في التزامها بحدودها الموضوعية من عجز وذل وضعف... التي تتنافى مع أوصاف الربوبية.

يقول ابن عطاء الله في هذا الصدد:

- « منعك أن تدعي ماليس لك مما هو للمخلوقين، أفيبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين».

- « المؤمن يشغله الشاغل لله عن أن يكون لنفسه شاكرا، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرا».

- « كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبإوصاف عبوديتك متحققا».

ذلك أن حقوق الربوبية أسبق على حظوظ النفس كما يقتضي ذلك مبدأ العبودية لله. فللنفس حق واحد هو «حق العبودية لله» الذي يخول لها كل الحقوق. فحق الربوبية الذي هو العبودية من العبد يتنافى مع رغبة النفس التي هي الاستيلاء على أوصاف الربوبية. ولا يتم حل هذا الإشكال إلا في ظل الشريعة حيث يتم صرف رغبة النفس في الاستيلاء على أوصاف الربوبية في اتجاه

1- الإشارة هنا الى الحديث: العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته. رواه مسلم.

إقرار العبودية. فإشباع «الحاجات المباحة» لتحقيق اللذة يعتبر عملا تعبديا مؤجورا(1). كما أن توظيف الأوصاف الإلهية لخدمة الربوبية مطلوب شرعا «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين».

إن العبودية لله هي التي تنفي أنا النفس الأمارة وتؤكد الأنا الإلهية. فيصبح القلب محلا لتجلي أوصاف الربوبية،والتي كانت النفس الأمارة تسعى الى الاستيلاء عليها غصبا لاستقصاء لذتها الحسية والمعنوية.

وأوصاف الربوبية الذاتية هي: الحياة والعلم والقدرة والغنى والكبرياء... تقابلها لدى الانسان: العدم والجهل والعجز، والفقر والذل... التي تعتبر أوصافا ذاتية للعبد.

وإن نزوع النفس الأمارة بالسوء الى الاستيلاء على أوصاف الربوبية الذاتية،أي الاستحواذ على الصورة الالهية والتمتع بها،هو الذي يفسر نزعتها الهيمنية،وكذلك أوهامها،وبالتالي خسرانها.

فالنفس إذا لزمت شعوريا حدودها الموضوعية من ضعف وجهل... واتصفت بأوصافها الذاتية... وخضعت لله بتوظيف أوصافه لخدمته لا لمزاحمته فيها،فإن الحق سبحانه وتعالى يخلع عليها تلك الأوصاف استحقاقا ذاتيا لها. وهذا ما يشير إليه الحديث القدسي: عن أبي هريرة (رض) قال: قال رسول الله صلى

1- الإشارة هنا الى الحديث الشريف: وفي بضع أحدكم أجر.

الله عليه وسلم: إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. وما يتقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. وان سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه» (رواه البخاري).

فالعبودية لله هي المصدر التي تتدفق منه اوصاف الربوبية لتكسو بجلبابها القلب الخاضع لمولاه.

يقول ابن عطاء الله:

- « تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه. تحقق بذُلّك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته. »

- « ورود الفاقات أعياد المريدين. ربما وجدتَ من المزيد في الفاقات مالم تجده في الصوم والصلاة. ».

- «الفاقات بسط المواهب».

- «إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك. (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) ».

- « اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيبا ومن حضرته

قريبا ».

أما من يفتقر الى غير الله فيزداد فقرا، ومن يتذلل لغيره يزداد ذلا... وهذا هو القانون الذي يتحكم في العلاقة الشعورية التي تربط العبد بالأكوان.

إن الله سبحانه وتعالى أخفى مفتاح معرفته في الأضداد، وليس في المترادفات والأشباه، حيث لا يهتدي إليها العقل المكسوف الأنوار.

فمنطق العقل يدفع بالانسان الى البحث عن الغنى في الغنى، وعن القوة في القوة، وعن القدرة في القدرة، وعن الكبرياء في الكبرياء حيث لا يكتشف إلا وهم الغنى ووهم القوة ووهم القدرة ووهم الكبرياء... كالعطشان الذي يريد أن يطفئ عطشه بماء البحر، فلا يزيده الشرب إلا عطشا.

إن منازعة الربوبية هي مصدر شقاء النفس الأمارة بالسوء وحرمانها. وهذه المنازعة لا يمكن معالجتها بالتأمل الفلسفي أو بأية إرادة صادرة عن النفس. فما دامت النفس الامارة هي مركز القرار في شخصية الانسان، فإنها لا تصدر إلا القرارات التي تعزز هيمنتها ونفوذها.

والقلب الهزيل الذي يعاني من سوء تغذية روحية لا يستطيع وحده مواجهة النفس الأمارة إلا في ثلاث حالات ذكرهم ابن عطاء

الله في حكمه: الخوف والشوق وصحبة العارفين.

- « لا يخرج الهوى من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق»؛

- « لا تصحب من لا ينهضك حاله،ولا يدلك على الله مقاله».

إن مهمة الأنبياء والرسل كانت دائما هي دعم القلوب بالأنوار التي تعتبر قُوتَها اليومي للحفاظ على صحتها وتوازنها وتحصيل طهارتها. وهذه المهمة منوطة أيضا بورثتهم الروحيين من العارفين والأولياء.

يقول ابن عطاء الله:

- « النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس. فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار».

- « الأنوار مطايا القلوب والأسرار.»

إن ذكر الله تعالى يعتبر العلاج المناسب والفعال الذي تبنته جميع الأديان لمعالجة أمراض القلب وتحقيق شفائه. فهو يشكل «المضاد الحيوي» الروحي الذي يهاجم النواة الصلبة الداخلية لإرادة الشر في الانسان التي هي جرثومة الخاطر السيء.

ذلك أن الخاطر السيء إذا وجد أرضية خصبة للانتشار، أي قلبا غافلا عن الله، فإنه ينغرس فيها ثم يتجذر ليصبح هما ثم نية ثم إرادة ثم فعلا.

وهذا الخاطر السيء يتم استئصاله بتسليط أنوار الذكر عليه التي تثمر الواردات الإلهية التي تقوض إرادة الشر في الانسان. وباستئصاله يتم إجهاض الأعمال السيئة التي كان سيتحول إليها.

يقول ابن عطاء الله:

- « متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد منك (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة). الوارد يأتي من حضرة قهار، لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) ».

- « إذا رأيت عبدا أقامه الله تعالى بوجود الأنوار وأدامه عليها مع طول الامداد، فلا تستحقرن ما منحه مولاه لأنك لم تر عليه سيما العارفين ولا بهجة المحبين، فلولا وارد ما كان ورد ».

كما أن خاصية ذكر الله تعالى هي تحقيق التجرد الشعوري من الأشياء مع امتلاكها، لا التجرد المادي منها. ذلك أننا قد لا نملك شيئا ونتشوف الى تحصيله فنكون مرتبطين به شعوريا وإن كنا

لا نملكه ماديا. فمن يملك الشيء وهو زاهد فيه خير ممن لا يملكه وهو طامع فيه.

وإن مؤشر الزهد الباطني في الأشياء عند الصوفية هي: اللامبالاة الشعورية. أي أن لا يتأثر شعورنا إذا فقدنا شيئا أو إذا حصلنا عليه. ونتعامل مع النعم باعتبارها صادرة عن المنعم بها تعالى لا باعتبارها تحقق متعة أو تفيد لذة. وهذا لا ينفي تلذذنا بها، بل تنضاف الى اللذة الحسية لذة معنوية وروحية.

يقول بن عطاء الله:

- **« لا تفرح بالنعمة وافرح بالمنعم بها عليك».**

وإن الشقاء الذي يعانيه الانسان يكمن في ارتباطه الشعوري بالأشياء وبالقيم المادية، فإذا فقدها أو لم يحصلها أثار ذلك لديه شعورا بالحرمان. فالحضارة المادية تؤدي الى حدوث اختلالات نفسية لدى الانسان لا بالنظر الى ماديتها ولكن لأنها تنسج على قلبه الغافل خيوطا من الارتباطات الشعورية تؤدي الى تفقيره روحيا، وبالتالي الى إشقائه.

فلو أن القلب ظل فارغا من التعلق بها، وتلك مهمته التي خلق من أجلها، لكان محط النظر الإلهي، ومحل التجليات والفيوضات النورانية التي تملؤه سعادة وحبورا. فالأنوار الإلهية لا تستقر إلا في القلوب الفارغة المهيأة لاستقبالها.

وهكذا وبفضل هذه القطيعة الشعورية مع الأشياء لا تشكل الحضارة المادية بخيراتها المادية المتنوعة (المباحة) أي خطر يتهدد التوازن الروحي للانسان مادام أنه غير مرتبط بها شعوريا.

إن التعلق الشعوري بالأشياء وبكل «ما سوى الله تعالى» هو نتيجة الطمع الذي يصرف القلب عن مولاه. وفي صرفه عن مولاه إذلال له وإهانة.

يقول ابن عطاء الله:

- **« ما بسقت أغصان ذل إلا عن بذر طمع».**

وتحرير الشعور من التعلق «بما سوى الله» لا يتأتى إلا بحصول اليأس منها.

يقول ابن عطاء الله:

- **« أنت حر مما أنت منه آيس، وعبد لما أنت فيه طامع».**

واليأس منها لا يتم الا بالطمع في ربها.

إن المعادلة السلوكية للنفس الأمارة بالسوء هي: **«منك إليك بك»**. وهي معادلة لا تسري فيها أية نورانية لغياب الله منها غيابا تاما. فالنفس تعمل فقط على إشباع رغباتها واستقصاء لذتها الحسية والمعنوية.

وأوصاف النفس الأمارة بالسوء هي: الحرص، البخل، الكبر، الغضب، الحسد، الكذب...

شعر : قلبك عاصمة المملكة الإلـهية

- قلبك بدونه

غابة ماتت عصافيرها

وانكسر ناي راعيها

فخرست سمفونيتّها

- قلبك بدونه

قيثارة تحشرج صوتها

وردة اختنق أريجها

ليلة غاب قمرها

- قلبك بدونه

بلاد حرة فك الاستعمار أزرار حدودها

وضاجع خيراتها وعبث بمؤسساتها وقيمها

- قلبك عاصمة المملكة الإلهية

فنظف شوارعها

وبيض جدرانها

واسق أحواضها

ودق طبول الفرحة فيها

فالملك لا يقيم في مدينة "مهجورة" .

2) النفس اللوامة.

إذا أقبل القلب على ذكر الله تعالى واشتغل به تحرر جزئيا من قبضة النفس الأمارة واسترجع جزء من حركيته واستقلاله، فيتراجع نفوذ النفس الأمارة،فتتحول الى لوامة.

فكل مخالفة شرعية أو سلوك لا أخلاقي يوقظان لدى العبد توبيخ ضميره الديني الذي لا يهدأ إلا بالتزام مقررات الشرع.

والمؤشر النفسي للنفس اللوامة هو الشعور بالندم عند حصول أية مخالفة لأمر شرعي أو اخلاقي. وسلوكها العام تهزه أسئلة من نوع: لو فعلت كذا لكان كذا، ولماذا هذا وليس ذاك؟.

وهذا الموقف راجع الى أن القلب بعد أن استعاد بعضا من حريته،أصبح له حق النظر في الأعمال التي تصدر عن العبد. فهي إما أعمال مخالفة للشريعة أو منافية للأخلاق يوبخ القلب صاحبها من خلال الشعور بالندم الذي يعقبها، أو أعمال صالحة يرتاح لها القلب من خلال الشعور بالرضى الذي يترتب عنها.

إن اللوم هو مؤشر خارجي على حدوث تحول في اتجاه الخير، ومنعرج تسلك فيه النفس طريقا جديدة.

إلا أن القطيعة الحاسمة مع النفس الأمارة لا تتم إلا بالتوبة النصوح التي يجب أن تتوفر فيها ثلاثة شروط:

1 - الشعور بالندم:

يقول ابن عطاء الله:

- «من علامة موت القلب عدم الحزن على مافاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات».

لكن شرط يضيف ابن عطاء الله:

- « لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله عز وجل، فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه»

لأنه:

- «لا صغيرة إذا قابلك عدله، ولا كبيرة إذا واجهك فضله».

2 - الاستغفار.

3 - الاقلاع عن الذنب وعدم الرجوع إليه.

إن التوبة تشكل مرحلة أساسية لسلوك الطريق الصوفي، وشرطا مسبقا لابد من توفره قبل بدئ السير الى الله تعالى. فهي "البنية الأساسية" لكل تنمية روحية بدونها لا يمكن أن يتحقق السير الى الله تعالى.

كما أنها يجب أن تتحول الى عمل ملموس، وأن لا تبقى مجرد شعور ونية.

يقول ابن عطاء الله:

-« الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار.».

-«الرجاء ما قارنه العمل وإلا فهو أمنية».

-«إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس».

ويشيرابن عطاء الله الى أن الحق سبحانه يسر للعبد القيام بالأعمال رحمة به. يقول بهذا الصدد:

-«قيد الطاعات بأعيان الأوقات كي لا يمنعك عنها وجود التسويف. وسع عليك الأوقات كي لا تبقى لك حصة الاختيار.»

-«علم قلة نهوض العباد الى معاملته فأوجب عليهم

طاعته، فساقهم إليها بسلاسل الايجاب. عجب ربك من قوم يساقون الى الجنة بالسلاسل. أوجب عليك وجود خدمته وما أوجب عليك إلا دخول جنته.»

مع العلم يوضح ابن عطاء الله، أن عملك هو لصالحك لا لصالحه. يقول بهذا الصدد:

-«لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك. فإنما أمرك ونهاك عن هذه لما يعود عليك. لا يزيد في عزه إقبال من أقبل، ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر».

بعد التوبة المقرونة بالعمل يشير بن عطاء الله الى ضرورة توفر عنصر الاخلاص في العمل ليكون مقبولا:

-«الأعمال صور قائمة روحها الاخلاص».

وعلامة الاخلاص في العمل عند ابن عطاء الله هو العمل لله محبة وعبودية لا من أجل العوض. يقول بهذا الصدد:

-«ليس المحب من يرجو من محبوبه عوضا أو يطلب منه غرضا. فإن المحب من يبذل لك ليس المحب من تبذل له».

لأنه: **-«متى طلبت عوضا على عمل طولبت بوجود الصدق فيه، ويكفي المريب وجدان السلامة».**

لذلك: -«لا تطلب عوضا على عمل لست له فاعلا، يكفي من الجزاء لك على عمل أن كان له قابلا».

لأن: -«من فضله عليك أن خلق ونسب إليك».

كما أن: -«عنايته فيك لا لشيء منك. وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته؟ لم يكن في أزله إخلاص أعمال ولا وجود أحوال، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال وعظيم النوال».

وبذلك: -«كيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك؟ أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك؟ ».

وعليه: -«لا يكن طلبك تسببا للعطاء منه فيقل فهمك عنه، وليكن طلبك لإظهار العبودية وقياما بحقوق الربوبية. كيف يكون طلبك اللاحق سببا لعطائه السابق؟ جل حكم الأزل أن ينضاف الى العلل».

ف -«متى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء وإذا منعت قبضك المنع فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك وعدم صدقك في عبوديتك».

لأنه: - «من عبده لشيء يرجوه منه، أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه، فما قام بحقوق أوصافه».

فهو: - **«متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره. فهو في كل ذلك متعرف إليك، ومقبل بوجود لطفه عليك.»**

- **«إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه».**

لذلك فـ : - **«خير ما أنت طالبه منه ما هو طالبه منك».**

إذا كان طلب العوض يعتبر حافزا على العمل بالنسبة للسالك في مستوى النفس اللوامة،إلا أنه يتطور بتطور النفس. فإذا كان العوض هو طلب الجنة بالنسبة للعُبّاد على مستوى النفس اللوامة، فإن العوض على مستوى النفس المطمئنة والراضية يصبح طلب الولاية والفتح والخصوصية. ولا تزول هذه الأعواض النورانية إلا بفناء النفس فناء كليا. فالانوار حجاب كما الظلمة حجاب. وحسنات الأبرار سيئات المقربين. و«قف أمام الأبواب لا لتفتح لك الأبواب تفتح لك الأبواب». لأنه كما يقول ابن عطاء الله:

-**«ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدا، وهو لا يجب أن تكون عبدا لغيره».**

فهو سبحانه -**«كما لا يجب العمل المشترك لا يجب القلب المشترك. العمل المشترك لا يقبله. والقلب المشترك لا يقبل عليه.».**

لأنه: -«ربما وقفت القلوب مع الأنوار كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار».

ولأن: -«تطلعك الى غيره دليل على عدم وجدانك له، واستيحاشك لفقدان ما سواه دليل على عدم وصلتك به.».

لذلك -«لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها وأودعت أسرارها، فلك في الله غنى عن كل شيء».

و -«لا تزكين واردا لا تعلم ثمرته. فليس المراد من السحابة الأمطار، وإنما المراد منها وجود الثمار».

لأنه: -«إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا، أورده عليك ليتسلمك من يد الأغيار، ويحررك من رق الآثار. أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك الى فضاء شهودك».

ولأن -«النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود شهوده واقترابه، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه. فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم بالنظر الى الوجه الكريم».

وقد وضع ابن عطاء الله معيارا على أساسه يمكن قياس درجة

التعلق بالأعمال وثمراتها:

-«من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند حصول الزلل».

وهذا لا يعني إسقاط الأعمال الصالحة (الطاعات)،ولكن الاستمرار في ممارستها مع عدم التعلق بها شعوريا مصداقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: اعملوا ولا تتكلوا.

ويوضح ابن عطاء الله معنى هذا الحديث النبوي:

-«متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فقد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة».

إذ -**«لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلا للقبول».**

و - **«كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلا».**

و - **«كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته، وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته».**

فـ - **«أنت الى حلمه إذا أطعته أحوجك منه الى حلمه إذا عصيته».**

ومنتهى الإخلاص يتحقق عند فناء النفس حيث لا تجد الحظوظ والاعواض مكانا تستقر عليه فتنتفي بانتفاء النفس. وهو

مالا يتحقق على مستوى النفس اللوامة التي ترى الفعل صادرا عنها، وترى وجودها مستقلا وقائما بنفسه.

إن المعادلة السلوكية للنفس اللوامة هي: **«منك إليه بك»** تسري فيها أنوار ضعيفة بحكم وجود ظل النفس، وشعورها بفعلها وبكينونتها المستقلة. وضعف الأنوار ناتج عن حضور الله فيها حضورا باهتا من حيث توجه العبد بعمله إليه فقط.

أما صفات النفس اللوامة فهي: الندم، اللوم، الاعتراض، حب الظهور....

3 - النفس المطمئنة:

إن خروج النفس اللوامة عن فعلها وعدم رؤيتها له لا يتأتى إلا بدعم خارجي من شيخ عارف بالله دال عليه، وإن كان هذا الدعم الروحي يعتبر ضروريا منذ مرحلة النفس الأمارة بالسوء لطي المراحل واختصار المسافات.

ذلك أن خروج النفس عن فعلها وعدم رؤيتها له أمر شاق لا يتاتى لها من تلقاء نفسها نظرا لارتباطها الشعوري بفعلها الذي تعتبره صادرا عنها. فهي منطقيا لا تستطيع الانفكاك عنه شعوريا إلا بالتخلي عنه.

إلا أن صحبة العارف بالله ودعمه الخارجي يحقق هذا

مالا يتحقق على مستوى النفس اللوامة التي ترى الفعل صادرا عنها، وترى وجودها مستقلا وقائما بنفسه.

إن المعادلة السلوكية للنفس اللوامة هي: **«منك إليه بك»** تسري فيها أنوار ضعيفة بحكم وجود ظل النفس، وشعورها بفعلها وبكينونتها المستقلة. وضعف الأنوار ناتج عن حضور الله فيها حضورا باهتا من حيث توجه العبد بعمله إليه فقط.

أما صفات النفس اللوامة فهي: الندم، اللوم، الاعتراض، حب الظهور....

3 - النفس المطمئنة:

إن خروج النفس اللوامة عن فعلها وعدم رؤيتها له لا يتأتى إلا بدعم خارجي من شيخ عارف بالله دال عليه، وإن كان هذا الدعم الروحي يعتبر ضروريا منذ مرحلة النفس الأمارة بالسوء لطي المراحل واختصار المسافات.

ذلك أن خروج النفس عن فعلها وعدم رؤيتها له أمر شاق لا يتاتى لها من تلقاء نفسها نظرا لارتباطها الشعوري بفعلها الذي تعتبره صادرا عنها. فهي منطقيا لا تستطيع الانفكاك عنه شعوريا إلا بالتخلي عنه.

إلا أن صحبة العارف بالله ودعمه الخارجي يحقق هذا

الانفكاك الشعوري عن العمل مع الاستمرار في مزاولته،وذلك بإفناء النفس عن فعلها.

فالعابد لا يمكنه أن ينفك شعوريا عن عبادته بالقيام بمزيد منها، بل على العكس كلما زادت تراكمات أعماله التعبدية كلما زاد تعلقه الشعوري بها. ولخروج النفس عن رؤية فعلها،يجب أن تستند الى "فعل حر" وهو ذكر الله المأذون الذي يصفه عارف بالله خرج عن رؤية فعله الى رؤية فعل الله فيه.

فذكر الله المأذون وإن كان هو نفسه عملا تعبديا إلا أنه مشحون بأنوار إلهية تحرق جميع التعلقات، بما فيها التعلق بفعل الذكر نفسه. فهو كعود تحرك به نار على الموقد كلما زاد اشتعالها ازداد استهلاكها للعود حتى تفنيه.

فذكر الله المأذون يؤدي الى غياب الشعور بالأفعال بما فيه فعل الذكر نفسه من خلال تجلي الفعل الالهي فيها. وتصبح الأفعال أسبابا يخلق الله سبحانه وتعالى الاشياء عندها؛ أي بمناسبتها لا بها.

إن الوعي بفعل الله في أفعال العبد لا يتأتى إلا بفضل تدفق الانوار الالهية الحارقة للسوى (ما سوى الله) عبر قناة ذكر الله المأذون من شيخ عارف بالله دال عليه.

وذكر الله المأذون هذا لا يكون له تأثير حارق للسوى إلا من

خلال الاعتقاد في ولاية الشيخ المربي. فقلب الشيخ المربي المأذون المتجوهر بالانوار الالـهية "يؤطر" في الغيب قلب المريد ويشرف على تربيته ويمده بأسرار وأنوار وفيوضات لا عهد له بها سابقا مما يجعله يغيب عن فعله بشهود فعل الله فيه. وهذا الشهود (تجلي الافعال) يخرجه من نار اللوم والمنازعة الى سكينة الطمأنينة. فالمريد يستمر في ممارسة طاعاته لكن باعتبارها صادرة من الله إليه لا باعتبارها صادرة منه الى الله.«فتاب عليهم ليتوبوا» «رضي الله عنهم ورضوا عنه».

ونجد أن على قمة هرم الولاية في الاسلام يتربع الوارث المحمدي الذي يؤدي التصديق في ولايته والخضوع لإرادته الى توجيه القلب الى الله تعالى بسرعة تتناسب مع درجة التصديق في ولايته،وإخلاص المريد في طلبه للحق سبحانه.

ففي مجال التربية الروحية يسري أيضا قانون العرض والطلب الذي يتحكم في الاسواق حيث يحدد الطلب (طلب المريد) العرض (الفيوضات الالـهية).

فالوارث المحمدي هو "باب الله" يكفي طرقه بإلحاح ليفتح.

يقول ابن عطاء الله في هذا الصدد:

-«سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه،ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله

إليه».

فهو رجل ورث الانوار المحمدية،وأصبح قلبه مستهلكا فيها. والأولياء المحمديون يتفاضلون في مقاماتهم بحسب نصيبهم من هذا الارث المحمدي. فهناك الكامل والأكمل.

إن الوارث المحمدي المستهلك قلبه في الانوار يصبح "سلكا إنسانيا" ناقلا لها الى قلوب مريديه والمعتقدين في ولايته الخاصة.

ويعتبر الاعتقاد في هذا الباب جسرا ضروريا لعبور هذه الأنوار، ومؤشرا على وجود نصيب من الولاية لدى المعتقِد. وهذا القانون يتحكم في علاقة الأرواح بعضها ببعض،كما يؤكد ذلك الحديث النبوي: الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف. يقول الجنيد تأكيدا لهذا المعنى: «التصديق بأمرنا هذا ولاية». إذ لا يصدق في الولي إلا ولي.

إن المريد الذي يفني إرادته في إرادة شيخه يكسر إرادة نفسه التي تعتبر رأس هذه النفس. وبقطع رأسها تموت النفس موتا معنويا، وبموتها يحيا القلب.

أما بدون شيخ مربي واصل موصل يكون من يريد أن يخرج عن إرادة نفسه، وبالتالي عن فعله كالغريق الذي يريد أن ينقذ نفسه بنفسه، أو كالذي يريد أن يتخاصم الى قاض هو خصمه في نفس الوقت، أو كمن يريد أن يوقظ نفسه وهو مستغرق في نوم

عميق.

فالنفس لا يمكن أن تصدر حكما إلا لصالحها لتكريس هيمنتها وتعزيز قبضتها. لذلك كان تدخل الشيخ المربي أمرا ضروريا لا مناص منه، فهو طوق النجاة بالنسبة للغريق، والقاضي المحايد العدل بالنسبة للمتخاصم، والمستيقظ الذي يمكنه إيقاظ غيره. وفي غيابه فإن النفس هي التي تتولى تدبير شخصية العبد حيث تحرص على تحصيل حظوظها العاجلة التي تتنافى مع حقوق الربوبية التي يعتبر الالتزام بها هو "منفذ الاغاثة" بالنسبة للقلب.

فالشيخ المربي يلعب دور المرآة الصافية التي يرصد فيها المريد اتجاه تطوره الروحي من خلال نظرته الى شيخه. فإذا كان للمريد استعداد خاص للولاية والخصوصية فإن نظرة من شيخه تحيي رميم روحه، وتفجر فيه محبة الله ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم يسافر معها قلبه الى آفاق جديدة لا محدودة.

إن النفس اللوامة بانتفاء اللوم والمنازعة عنها نتيجة استغراقها في شهود الفعل الالهي في فعلها (بلا حلول ولا اتحاد) تصبح نفسا مطمئنة تعمل بالله ولله، محبة لا طمعا.

يقول بن عطاء الله في هذا المعنى:

-«الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به».

-«إذا أردت أن ينفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك، وإذا أردت أن ينفتح لك باب الخوف فاشهدما منك إليه».

-«لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لن تصل إليه أبدا. ولكن إذا أراد ان يوصلك إليه غطى وصفه بوصفك ونعتك بنعته، فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه».

-«الزهاد إذا مدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الخلق، والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الحق».

-«غيِّبْ نظر الخلق إليك بنظر الله إليك، وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك».

-«لا تمدن يدك الى الأخذ من الخلائق إلا أن ترى أن المعطي فيهم مولاك. فإن كنت كذلك فخذ ما وافق العلم».

ومن خصائص النفس المطمئنة التي حصل لها هذا الشهود أنها تتوجه الى الله تعالى لتسديدها لفعل الخير واجتناب الشر، كما تكون شاكرة له على ما صدر منها من طاعات.

يقول ابن عطاء الله تأكيدا لهذا المعنى:

-«لا تفرح بالطاعة لأنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت منه إليك».

فـ **-«أنت الى حلمه إذا أطعته أحوج منك الى حلمه إذا عصيته».**

إذ **-«رب طاعة أورثت عزا واستكبارا، ورب معصية أورثت ذلا وانكسارا».**

وان القاعدة السلوكية التي تتحكم في النفس المطمئنة هي: **"منه إليه بك"** حيث كمية الانوار الالهية أكثر أهمية، لأن الله تعالى موجود فيها باعتباره غاية الفعل التعبدي وسببه. إلا أن وعي النفس المطمئنة بنفسها وبكينونتها المستقلة يظل قائما. والقلب في مستوى النفس المطمئنة يتلقى دفقا إضافيا من الانوار يزيد من إشراقه.

وأخلاق النفس المطمئنة هي: الكرم، التواضع، الصبر، الحلم، التذلل، القناعة، الشكر...

شعر: اختر أن لا تختار

1 -اختر أن تكون

مركبا شراعيا ينساب في سكون

ولا تختر أن تكون

مركبا بخاريا يمزق بقرقعته ثوب السكون

وأنت في كل الشؤون

ورقة خريفية في مهب ريح من أمره بين الكاف والنون

2 -اختر أن تكون

نغمة ترددها حنجرة قيثارة من صدرها العودي الحنون

ولا تختر أن تكون

زفرة حرى تصعدها امرأة فجعتها المنون

وأنت في كل الشؤون

صوت توقعه يد من أمره بين الكاف والنون

3 - اختر أو لا تختار... فأنت في كل حال تختار

ما اختاره المختار... "وربك يفعل ما يشاء ويختار"

4 - النفـس الراضيـة :

إن سكينة النفس المطمئنة تبقى مشوبة بمعارضة خفية لكل مالا ينسجم مع حظوظها واختياراتها. فهي وإن كان قد انزاح عنها حجاب التعلق بالطاعات والأعمال (الذي هو حجاب نوراني) عند شهودها الفعل من الله تعالى إلا أن عرق المنازعة لم يسكن فيها سكوتا تاما،إذ لازال ينبض فيها نبضا خافتا. فهي لازالت تعترض

اعتراضا خفيا وصامتا على إرادة الله في خلقه التي لا تنسجم مع مرادها واختيارها.

وان حقنة إضافية من ذكر الله المأذون من الشيخ المربي تقضي على هذه المعارضة الصامتة والمنازعة الخفية، وذلك عندما تنجلي لها حقيقة الكون من أنه مرآة تجلي الصفات الإلهية الجمالية والجلالية، تشكل الأفعال قنوات لها ومظاهر، فتذعن لمراد الله في خلقه، فتصبح راضية.

ذلك أن الله تعالى أوجد العالم من عدم ليرى صفاته وأسماءه في مرآة خارجية عنه وفيه في نفس الوقت. فكان الكون مرآة لصفاته.

إن هذه لحقيقة عندما تنجلي للقلب تقضي على المعارضة الصامتة للنفس المطمئنة فتصبح راضية.

وإن بصيرة المريد التي تكون قد شحذتها نورانية الذكر تنصرف عن الفعل لتنظر الى محتواه ومضمونه ومادته. فالأفعال ليست سوى قنوات تمظهر الصفات والأسماء الإلهية.

والقاعدة السلوكية للنفس الراضية التي نستشفها من الحكم العطائية هي: «منه إليه به» (تجلي الصفات والأسماء) حيث تزداد الأنوار الإلهية كما وكيفا. فالله حاضر فيها كغاية للفعل التعبدي ومصدرا له باعتبار أسمائه وصفاته.

إلا أن شعور النفس الراضية بنفسها كعمود تقوم عليه الأسماء والصفات الإلهية يظل قائما.

وأخلاق النفس الراضية هي: الرضى والشكر.

1 - الرضى.

هذا الرضى يمكننا رصده من خلال مجموعة من النصائح والمواقف التي تتضمنها الحكم العطائية. وهو نتيجة إعادة تأويل الاحداث (بإشراق باطني وليس بتأمل فكري) من زاوية الصفات والاسماء الإلهية والمشيئة الإلهية السابقة.

يقول بن عطاء الله:

-« متى آلمك عدم إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك فارجع الى علم الله فيك. فإن كان لا يقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم. »

-« من أثبت لنفسه تواضعا فهو المتكبر حقا إذ ليس التواضع إلا عن رفعة. فمتى أثبت لنفسك تواضعا فأنت المتكبر. ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع. التواضع الحقيقي هو ما كان ناشئا عن شهود

عظمته وتجلي صفته.»

-« لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف. المؤمن يشغله الشاغل لله عن أن يكون لنفسه شاكرا، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرا».

-« ما تجده القلوب من الهموم والأحزان فلأجل ما منعت من وجود العيان».

-« ما ترك من الجهل شيئا من أراد ان يحدث في الوقت غيرما أظهره الله فيه».

-« طلبك منه اتهام له، وطلبك له غيبة منك عنه، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه، وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه».

-« العجب كل العجب ممن يهرب ممن لا انفكاك له عنه، ويطلب مالا بقاء له معه».

-« الى المشيئة يستند كل شيء لأن وقوع ما لم يشأ محال، ولا تستند هي لشيء».

-« أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك».

- «لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجبا ليأسك، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك، لا

فيما تختار لنفسك. وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد».

- «لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود به وإن تعين زمنه لئلا يكون ذلك قدحا في بصيرتك، وإخمادا لنور سريرتك».

- «إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية. وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد إنحطاط عن الهمة العلية».

- «اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك دليل على إنطماس البصيرة منك».

- «سوابق الهمم لا تخرق سور الأقدار».

- «لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج».

- «لا ترفعن الى غيره حاجة هو موردها عليك. فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا. من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا؟».

2 - الشكر:

-« لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك، فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك».

-« من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها».

-« إذا أطلق الثناء عليك وأنت بأهل له فاثن عليه بما هو له أهل».

ففي مستوى النفس الراضية يصبح منطق الصفات والاسماء هو الذي يسود الكون في شعور السالك، فيختفي الاختلال في الكون ليحل محله الانسجام التام. وفي هذا السياق يجب فهم مقولة ابي حامد الغزالي: ليس في الامكان أبدع مما كان.

وهذا المعنى هو الذي أشار إليه ابن عطاء الله في حكمه:

-« الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الانوار، وحجبته عنه شموس المعارف بسحب الآثار.»

-« مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه. كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو

الذي ظهر لكل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود أي شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه لما كان وجود أي شيء؟ ياعجبا كيف يظهر الوجود في العدم، أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم؟».

-« شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر عند وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه. وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه؟ ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟».

-« الحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه. إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه. ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصرا. وكل حاصر لشيء فهو له قاهر (وهو القاهر فوق عباده)».

-« أباح لك أن تنظر ما في المكونات وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات (قل انظروا ماذا في السماوات والارض) ولم يقل انظروا السماوات والارض لئلا يدلك على وجود الأجرام.»

-« ما حجبك عن الله وجود موجود معه إذ لا شيء معه، ولكن حجبك عنه توهم موجود معه. »

-« لولا ظهور المكونات ما وقع عليها وجود الصفات. لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته. أظهر كل شيء لأنه الباطن، وطوى وجود كل شيء لأنه الظاهر. »

-« إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك، وإنما احتجب لشدة ظهوره وخفي عن الأبصار لعظم نوره ».

وأسماء الله وصفاته على أربعة أقسام:

- الاسماء والصفات الذاتية: الله، الأحد، الواحد، الحي، الحق...

- الاسماء والصفات الجمالية: الرحيم، الجميل، الكريم، الغفور، الودود...

- الاسماء والصفات الجلالية: القهار، الجليل. ...

- الاسماء والصفات الكمالية: الغني، الكبير، ...

5 - النفس المرضية :

إن شعور النفس بفنائها الذي يبقى ملازما لها على مستوى النفس الراضية عند حصول تجلي الاسماء والصفات يعتبره ابن عطاء الله آخر قميص داخلي وهمي إذا خلعه السالك عنه تحقق له التجرد

الكامل. فهو آخر معقل تحتجز فيه "النفخة الربانية" والتي تتحرر منه بفناء النفس عن فنائها أي عدم شعورها بفنائها. وهذا لا يتأتى إلا إذا هجمت أنوار الحق الذاتية على قلب العبد لتدك النفس دكا يمحقها ويسحقها. "فيفنى ما لم يكن ويبقى ما لم يزل". كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

يقول بن عطاء الله تأكيدا لهذا المعنى:

-« الأكوان ثابتة بإثباته وممحوة بأحدية ذاته».

والقاعدة السلوكية للنفس المرضية هي: **«منه إليه به»** (به أي بذاته) فكمية الانوار بلغت أقصاها.

أما صفات النفس المرضية فهي: فناء كل الصفات.

فعلى مستوى النفس المرضية تتدفق أنوار الحق الذاتية على قلب السالك الذي اختفى شعوره بفنائه الذي يعتبر آخر خيط وهمي يشده الى العالم الخارجي والى نفسه (فناء الفناء). وصاحب هذا الحال يكون غريق الربوبية.

يقول بن عطاء الله في وصف العارف الذي حصل له هذا الحال:

-« ما العارف الذي إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده».

شعر: القطرة الإنسانية

1 - حبة ماء أخذتها يد الشمس من حضن المحيط

ونفتها بعيدا بعيدا في السحاب

وفي الضباب

سقطت على الوديان، على الأقاحي والسهول

وتدحرجت فوق الصخور، على التلال

وترقرقت في النهر المنساب بين التلال

وتجمدت في عمائم الثلج على هامات الجبال

كانت تغني وتقول:

أنا قطرة ماء

أنا ابنة السماء

منبع الخصب والنماء

2 - سمعت يوما خلف الجبال موج البحر يعزف لحنا في الصخور

كان ينساب فيها فيهتز له الشعور

بدأت تحلم بالرحيل إليه على كف الغدير

لترى البحر العظيم الساكن بين الصخور

زفها الجدول للبحر فذابت في عمقه السحيق (1)

سكرت به وقالت: أنا البحر المحيط أنا البحر العميق (2)

3 - حبة الماء سرقتها الشمس من كف المحيط

ونفتها بعيدا في السحاب

وفي الضباب

سقطت على الوديان والأقاحي والسهول

كانت تغني وتقول:

أنا قطرة الماء

ابنة البحر والسماء

مني الخصب والنماء

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

1- حالة الفناء.

2 - حالة فناء الفناء.

6 - النفس الكاملة:

إن العارف بالله غريق الربوبية قد ينشله الحق منها ويضعه على شاطئ العبودية ليكون دالا عليه.

فإذا كان كل تجلي يمحو في شعور العارف بالله التجلي الذي قبله، فإنه بالنسبة للعارف صاحب النفس الكاملة المحمدية تصبح كل التجليات بالنسبة إليه مستويات موضوعية في مرآة الوجود. فهو يتعامل مع كل مستوى بمقتضى المنطق الذي يتحكم فيه، بما فيه مستوى الحجاب الذي يتحكم فيه منطق السببية. فهو رجل يكون الجمع في قلبه والفرق على لسانه، وهو رجل شرب ولم يسكر، بل لم يزده الشرب إلا صحوا.

يقول بن عطاء الله:

-« إذا كانت عين القلب تنظر أن الله واحد في سنته، فالشريعة تقتضي أنه لابد من شكر خليقته.

وإن الناس في ذلك على ثلاثة أقسام:

- غافل منهمك في غفلته، قويت دائرة حسه، وانطمست حضرة قدسه، فنظر الاحسان من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين، إما اعتقادا فشركه جلي، وإما استنادا فشركه خفي.

- وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق،

وفني عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب. فهو عبد مواجه بالحقيقة، ظاهر عليه سناها، سالك للطريقة قد استولى على مداها. غير أنه غريق الانوار، مطموس الآثار، قد غلب سكره على صحوه، وجمعه على فرقه، وفناؤه على بقائه، وغيبته على حضوره.

- وأكمل منه، عبد شرب فازداد صحوا، وغاب فازداد حضورا، فلا جمعه يحجبه عن فرقه، ولا فرقه يحجبه عن جمعه، ولا فناؤه يصده عن بقائه، ولا بقاؤه يصده عن فنائه، يعطي كل ذي قسط قسطه، ويؤتي كل ذي حق حقه.

وقال أبو بكر الصديق (رض) لعائشة (رض) لما نزلت براءتها من الافك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشكري رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: والله لا أشكر إلا الله. دلها أبو بكر على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضي لاثبات الآثار. وقال صلى الله عليه وسلم لا يشكر الله من لا يشكر الناس. وكانت في ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها، غائبة عن الآثار، فلم تشهد إلا الواحد القهار.»

وصفات النفس الكاملة هي: صفات النفس المطمئنة والراضية والمرضية.

ويمكن تلخيص مراحل السلوك الصوفي التي نستشفها من "الحكم العطائية" في الجدول التالي:

مراحل السلوك الصوفي	القاعدة السلوكية	درجة كثافة الأنوار
النفس الأمارة بالسوء	منك إليك بك	
النفس اللوامة	منك إليه بك	×
النفس المطمئنة	منه إليه بك	× ×
النفس الراضية	منه إليه به (الأسماء والصفات)	× × ×
النفس المرضية	منه إليه به	× × × ×
النفس الكاملة	منه إليه به	× × × × ×

ونشير في ختام هذا التحليل الى ملاحظتين أساسيتين تتعلقان بالسلوك الصوفي عموما:

1- يعتبر ابن عطاء الله أن السير الى الله وطي مختلف مراحل النفس يكون إما من أعلى الى أسفل أو من أسفل الى أعلى بحسب الاستعداد الباطني للمريد، وبحسب سابق مشيئة الله فيه.

فالسير الأول هو طريق الجذب، حيث يزج بالمريد السالك في أنوار الذات، ثم ينزل به درجات سلم التجليات (تجلي الصفات والأسماء، تجلي الأفعال)، والسير الثاني هو سير المجاهدة والسلوك.

يقول ابن عطاء الله:

-« دل بوجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه، وبوجود أوصافه على وجود ذاته، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه. فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته، ثم يردهم الى شهود صفاته، ثم يرجعهم الى التعلق بأسمائه، ثم يردهم الى شهود آثاره. والسالكون على عكس ذلك. فنهاية المجذوبين بداية السالكين، وبداية السالكين نهاية المجذوبين. فإن مراد السالكين شهود بداية الأشياء لله. ومراد المجذوبين

شهود الأشياء بالله. السالكون عاملون على تحقيق الفناء والمحو، والمجذوبون مسلوك بهم طريق البقاء والصحو، لكن لا بمعنى واحد، فربما التقيا في الطريق، هذا في ترقيه وهذا في تدليه».

2- يقول ابن عطاء الله:

-« نهاية العارفين بداية السالكين».

لكن من حيث ظاهر السلوك فقط، فعمل العارف وإن كان يشبه عمل السالك إلا أن بواعثه وغاياته مختلفة. فالسالك يعمل لله من خلال نفسه، والعارف يعمل بالله من خلال ربه، فالسالك يخشى عقوبته ويرجو ثوابه. والعارف يخشى مكره ويطلب رضاه.

وفي خشية العارف يقول ابن عطاء الله:

-« ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه».

لأنه: **-«لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية، إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت في الأفق وليست منه. تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك، وتارة يقبض ذلك عنك فيردك الى حدودك، فالنهار ليس منك إليك ولكن وارد عليك.»**

والحمد لله رب العالمين.